في الضيقات[1]

الشيخ يوسف الفاتوبيذي

الإسقيط الجديد *(Nea Skete)* في ١٠/١/١٩٨٢

إلى عزيزيَّ X و A،

أصلّي من كلّ قلبي كي تحلّ عليكما رحمة ربّنا ومخلّصنا ونعمته، آمين.

بعد أن تلقَّينا رسالتكما، أمس الجمعة، تأثّرنا وانزعجنا، وهرعنا على الفور إلى الكنيسة وصلّينا إلى القدّيسة والدة الإله. وسنواصل اليوم تقديم الخدم الكنسيّة والصلوات، طالبين تدخُّل الرحمة الإلهيّة لخيركما.

أهمّ ما في الأمر هو ألّا تفقدا شجاعتكما وإيمانكما بربّنا، الذي يعرف كلّ شيءٍ ويسوس كلّ شيءٍ ليحوّله إلى منفعةٍ لنا. "لا يعتمد الأمر على الشخص الذي يطلب، ولا على الذي يسعى، بل على الربّ الذي يرحم" [راجع رومية 16:9]، و"هو الذي يعتني بنا".

إذا استطعتُما أن تحتملا كلّ شيءٍ من أجل هذا الإيمان، وكنتما واثقَين بالربّ، تكونان قد وجدتما هدفكما في الحياة، وسيكون وجودُكما سلاميًّا ومطمئنًا.

لا سلام مستمرّ في هذا العالم، ولا طمأنينة ولا استقرار، بخاصّةٍ في هذه الأيّام حيث تتجمّع الغيوم في الأفق، وثمّة هياجٌ ويأسٌ في كلّ مكان. مع ذلك، اطمئنّا لأنّه كلّما تألّمنا أكثر في هذه الحياة، ازداد ربحنا في السموات. والسبب هو أنّ كلّ مصيبةٍ نتحمّلها في هذه الحياة، مؤمنين بالربّ وواضعين رجاءنا عليه، تتحوّل إلى وديعةٍ ستُنقذنا لاحقًا. أليست هذه هي الطريقة التي يشجّعنا بها ربّنا في تطويباته عندما يقول: "طوبى للباكين لأنّهم سيُعزَّون"؟

[1] *الرسالة السابعة من رسائل الشيخ يوسف الفاتوبيذي*

لا أقصد أن أعرّضكما لأيّ خطرٍ أو تهديدٍ محدّد، بل أحاول إيقاظكما وإعدادكما، أنتما المبشّرَين الأمينَين بالكتب المقدّسة. يجب أن تكونا مستعدَّين دائمًا للقتال لأنّه كما يقول ربّنا: "لا نعرف متى سيأتي اللصّ". ونعني بكلمة "لصّ" أيّة مشكلة وتجربة، إبليس الخفيّ والشيطان الذي يسعى بإصرارٍ واستمرار، ومن دون أن يهجع، لاحتجازنا وتدميرنا!

أمّا نحن، أيّها العزيزان على قلبي، فعلينا أن نتجاهل، أو بالأحرى أن نغمض أعينَنا، عن الظروف الخارجيّة وعن أعمال البشر الأخرى وعاداتهم. يجب أن نرفع أعيننا نحو صليب ربّنا، الذي به صُلِبَ العالم لنا وصُلبنا للعالم. ربّنا هو مرامُنا الوحيد، ورغبتنا، وهدفنا، وعالمنا كلّه، وغِنانا ومجدنا، والتماسنا، وتقدّمنا ومصدر قوّتنا. نبجّله بوصفه قائدنا ومكمّلنا ومركز كياننا. نبقى ثابتين دون أن نقلق، مؤمنين إيمانًا مطلقًا بأنّه "يهتمّ بنا"، وبأنّه "لن يسمح بمصاعب تتجاوز قدرتنا على الاحتمال"، بل عندما نتألّم "سيجعل مع التجربة المنفذ لكي نستطيع أن نحتمل" [راجع 1 كو 10: 13].

هكذا هي الحال، أيّها القلبان العزيزان عليَّ، يا عزيزيَّ. إنّ محبّة يسوع تُبقينا على اتّصال، ولسنا بعيدين عنكما؛ فالمسافة لا تسبّب سوى انفصالٍ قصير. نحن معًا روحيًّا في المسيح؛ لدينا الهدف نفسه، والمبادئ نفسها، ونجاهد من أجل الغاية نفسها: أن نكون مواطني السماء. لا ننزعج من هجمات أعدائنا، سواءٌ أجاءت من الشرّير مباشرةً أم من أتباعه.

وذلك لأنّ قدوتنا في حياتنا، كما قلتُ، هو يسوع الحلو وجميع الذين تبعوه عبر العصور، والذين هم الآن آباؤنا ومعلّمونا، ومن خلالهم نستمدُّ الشجاعة والعزاء، أيًّا يكن الجزء الحزين من حياتنا الذي يضربنا فيه الشرّ: في تقدّمنا المادّيّ، أو قيمنا، أو محطّةٍ في حياتنا، أو أحبّائنا، أو حتّى في أجسادنا. ندرك حينئذٍ أن "لا أحد سيؤذينا أبدًا" لأنّ ربّنا معنا.

إنّ أزمنتنا صعبة، كما أوضحنا من قبل، لا لأنّنا قد تلقّينا رؤيا حول ذلك، بل بسبب ما نختبره ولأنّ الأحداث تشير إلى ذلك. لذلك، لا يتوقّع المرء أمورًا جميلةً خلال المحنة، بل يتوقّع الشدّة والعواصف بسبب خطايانا. مع ذلك، فإنّ نعمة ربّنا ورأفته على المؤمنين يخلقان أسبابًا ومبرّراتٍ لتخليصنا من خلال هذه الظروف البائسة، إذا تعاملنا معها بحكمة. لمَ نقلق وننهار ونفقد شجاعتنا لأنّنا حُرمنا من تلك الأشياء

كلّها أو فقدناها، والتي هي عادمة الجدوى تمامًا وسنتركها وراءنا بعد مدّةٍ قصيرة، أأحببنا ذلك أم لا؟ "ماذا لنا في هذا العالم؟". "كلّ ما هو بشريّ لا معنى له".

أنتما ونحن، إخوتكم المتواضعين، سنواجه هذه المشقّة. نصلّي إلى مخلّصنا يسوع المسيح ووالدته القدّيسة، إذا كانت هذه هي رغبته، فلتكن مشيئته وليتبارك اسمه.

نرسل محبّتنا إلى جميع إخوتنا في المسيح. ونصلّي دائمًا من كلّ قلبنا من أجلكما.

لكما محبّتي، الراهب المتواضع الشيخ يوسف.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Elder Joseph of Vatopedi (1982). "Letters by Elder Joseph of Vatopedi, No. 7", *Pemptousia*, November 2011. Pemptousia.com.